القدس وحلم الوئام بين الأديان

نادية اللمكيَّة

يحدثُ أحيانًا أن تدهشك أفكار النص لتقفَ بك وجهًا لوجه أمام الأسئلة الجوهرية، ويحدثُ أن تكون شغوفًا بلغته؛ فتُسحرك الكلمات وترحل بك المعاني عميقا، لكنَّ الدهشة الأكبر أنْ يأخذك النص بعيدًا لتلتقي مع كل كلمة فيه بجوهر الكاتب، بفلسفته، بتعدد مناهله، بتقدير الناس له حين سمّوه «الوجه الحقيقيّ للمسيحية» وبتقديره لهم حين قال عن الإنسانية "أنت في معيّة، ليس في الإنسانية من معنى إلاّ كونها معيّة».

من الوهلة الأولى، أثار مقال المطران جورج خضر «المسيحيون العرب والقدس» دهشتي؛ ليس لأنه سردٌ تاريخيٌّ يعود للوراء ليحكي أبجديات المؤامرة والتضليل، ويثبت أحقية الديانات كلها بالقدس، بل بدا لي وكأنه تُرجم عن الإنجليزية ترجمة نست أن تحدد نوع المقال! فالنص تاريخي أخلاقي روحاني أدبي في آن واحد.

أما الأولى؛ فلكونه يدرس جذور الإشكالية محاولا الإجابة عن سؤال مهم: لماذا يكره اليهودُ المسيحيين الشرقيين؟ يعود بنا جورج خضر قرونًا إلى الوراء ليثبت الجواب سيكولوجيًا: "يهود فلسطين يعتبرون المسيحيين الفلسطينيين شركاء الظلم الذي ألحقه باليهود أهل الغرب».

لكن متى صارت الضحيّة جلّادًا؟ وقبل ذلك يجب أن نطرح سؤالا آخر: هل الضحية ضحية أصلا؟ إنَّ وصف الخضر للمسيحي الغربي بـ"الظالم" تتطلب عودة لتاريخ العلاقة اليهودية-المسيحية، ولعل الخضر كان يشير إلى المجازر التي ارتكبت ضد اليهود؛ منها إحراق الحملة الصليبية لهم في معابدهم، وقتلهم وإحراقهم في شرق أوروبا، ومنها مؤامرة تشريدهم من أوروبا، وقد كان القرآن الكريم شاهدًا على تلك العلاقة المتوترة بين الطائفتين: "وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء". لكنَّ اليهود أيضًا كانوا قد عُرفوا بسوء أخلاقهم، وبتعاملهم بالربا، وبخيانتهم حتى عند إكرامهم، لا أريد من ذلك أنهم استحقوا المجازر؛ لأنّ هذا الكاتب علمني أن القدس وطن "التلاقي الإلهي البشري" في صنع الحضارة، وكل إنسان -أيًا كانت خلفيته الأيديولوجية- يستحق العيش بكرامة، لكنني أود الإشارة إلى نقطتين رئيستين: أولا الأمر لا يتعلق باليهودية، بل بالكيان الصهيوني والتنظيم السياسي لإسرائيل؛ إذ تتبنّى إسرائيل فكرة "إقصاء الآخر" ورفض التعايش معه.

ثانيًا: إنَّ العداوة التي كانت بين المسيحية واليهودية قد تحوَّلت تمامًا؛ فبعد ثورة التجديد آمن المسيحيون البروتستانت بأن المسيح عليه السلام لن يعود إلا بعودة الشعب اليهودي إلى الأرض المقدسة، "وهكذا ظهر اتجاه جديد في المسيحية يحيي الهالة التي أضفتها التوراة على بني إسرائيل، ويُوجب على المسيحيين التدخل البشري لتحقيق وعود يهودية واردة في التوراة، كما قام هذا الاتجاه الهائل بدعم اليهود والدعوة إلى قيام كيان لهم في فلسطين، كما تزعم هذا الاتجاه حركة الدعوة لانبعاث اليهود وتسفيه التحقير المسيحي لليهودية والمطالبة بضرورة رفع الظلم والاضطهاد عن هذا الشعب المختار وفقًا للإيمان الحرفي بالكتاب المقدس". إذن فكرة القصاص ليست مُبررًا للكره، والرعاية الدولية التي تحفل بها إسرائيل من قبل مسيحيي أوروبا وأمريكا لا توجب كُره المسيحي الغربي بوصفه ظالمًا لليهودية!

أما الداعي الثاني لكره المسيحي الشرقي -بحسب جورج خضر- فهو موقف المسيحي من حضارة الإسلام؛ فقد كان

العنصر المسيحيّ حاضرًا في بناء الحضارة الإسلامية مساهمًا في نهضتها في كل مراحلها التاريخية، ولأن اليهود شعب حاقد على الحضارة العربية الإسلامية استوجب ذلك -بالضرورة- كرهه للمسيحي. كما أشار جورج خضر إلى إشكالية أيديولوجية ثالثة؛ تمثّلت في فهم المسيحي الشرقي لجوهر العقيدة ولمبدأ التطبيق؛ فهو يراه "تقليديًا" في تطبيقه للشعائر وفي علاقته مع الآخر اليهودي.

وفي غمرة الحديث عن التاريخ، لا يفوت جورج خضر فرصة تجديد دعوته للحوار، مُبقيًا حبل الود والوئام بين المسيحية والإسلام، ومشيرًا إلى مواقف المسيحية الصادرة عن الكنيسة والتي تدعو إلى الأحقية المشتركة بين المسيحيين والمسلمين في القدس، مشيدًا بكل تلك الحرية التي منحتها الحضارة الإسلامية للمسيحي واليهودي على السواء.

واللافت في النص دعوته إلى أن تكون القدس "وطن الله" يلتقي فيها المسلم والمسيحي واليهودي ليشكلوا مجتمعًا متحابًا، وتكون القدس رمزًا للسلام بين الديانات؛ فجورج خضر لا يريد اقتلاع اليهود من ذاكرتهم التاريخية في القدس: "نحن لا نريد إخراجهم من القدس ولو استطعنا"، ولتكون القدس صرحًا للفكر والعلم، وتعود للمشاركة في كل المجالات في وطنها العربي بعد عقود من الانغلاق والتقوقع.

لكنَّ العجيب مع كل هذه الدعوات إلى السلام والتكاتف حُضور فكرة الجهاد التي لم يستطع المطران خضر أن ينسلّ منها وهي التي شُغفت بها كل الديانات، يقول: "إذا استعيدت القدس ولم نستمر بالشهادة نكون قد نلنا حجرًا ويكون المعنى قد انتفض عليها والعمق ركيعات في العشق لا يسوغ فيها الوضوء إلا بالدم كما قال الحلاج».

... هُدوء النص رغم ثورة الموضوع تُكسبه روحانية غريبة من أول قراءة؛ فهو يتجاوز المسميات إلى رموزها، وينسلّ من التاريخ ليبحث في عمق المكان، لينقلك رويدًا رويدًا من قدس فلسطين إلى مقدس النفس، يقول فيها: "تروّضك القدس على المعاني وتستحيل فيها الرموز إلى قناعات (...) إذ المنتهى ليس القدس، لكن أن يصبح العالم قدسيّ التطلعات (...) القدس صورة عن قلوبنا ينبغي أن نذهب إليها لنتعرف على قلوبنا (...) إنها امتداد إلى اللانهاية إلى الأبد والأعلى إنها المعراج (...) القدس مقدس النفوس". ورغم كل العظات وقصص المسيح التي يدخلها المطران الشيخ في كل فقرة، لا يخرج النص من ضوء الدراسة. هي إذن دراسة تحاول إقناع القارئ أيًا كان توجّهه بأن القدس ذاكرة تاريخية دينية لا يجب أن يتوقف الهاجس إليها.

وعلى صعيد اللغة، يُحمّل "أسقف الحرف" -كما سمّاه محبّوه- النصَّ نبرة شعريّة خاصّة، ويبثّ فيه بلاغة تُلبس الألفاظ روحانية وإيمانًا حتى وهي ترسم أحداثًا أو تحكي وقائع تاريخية، يحمّلها كل ألوان الحب والإنسانية، ويخفي وراءها جرح الفرقة وألم الظلم والهزيمة، يقول في معنى السعي إلى القدس: "نحن نسعى إلى القدس معنى لئلا يبطل في أشخاصنا المعنى، إذا لم تصبح القدس طريقنا إلى السماء نكون قد أخطأنا الهدف".

إنَّ هذا الأسلوب في الكتابة جعل النصّ أقرب ما يكون للموعظة المرتبطة بالدليل التاريخي، والموجهة بأمل العودة وبوعود السلام، فالمطران -الذي عرفت عنه مواعظه المؤثرة صبيحة كل أحد- نجح في تمثيل أدواره الثلاثة: الباحث التاريخي، القس الواعظ، رسول السلام والمحبة.

«هل القدس أحجية لا يتناهى تعقيدها أم رجاء صعب مؤلم؟"..

هكذا يختم مطران مقاله ليفتح جرحًا لم يلتئم بعد، كيف لشعوب "تنافرت حتى الذبح" أن تتقاسم أرض القدس؟ طال الوعد وبقيَ الأمل بالذي لا يُخلف الوعد!

nkha008@gmail.com